بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

انتهينا فى كتابنا (المدخل إلى الأدب العربى ودراسته) إلى أن الأدب لا ينبغى أن يدرس من خلال تقسيمه إلى عصور تبدأ بالعصر الجاهلى فالعصر الإسلامى ...الخ لأن الجاهلية مضمون فكرى وليست إطارا زمنيا ، ولأن فترة ما قبل الإسلام لم تكن خالصة للشرك فقد كان فيها مؤمنون على دين إبراهيم وعلى شريعة موسى وعلى شريعة عيسى عليهم السلام ؛ فأدب ما قبل الإسلام أدبان هما أدب الإيمان وأدب الجاهلية ، وهما متقابلان لا يجوز جمعهما، وقلنا إن الإسلام لم يقض على الجاهلية لقوله صلى الله عليه وسلم لصاحبه أبى ذر (إنك امرؤ فيك جاهلية) وذهبنا إلى أن جاهلية ما بعد الاسلام أشد وأحد من الجاهلية قبل الاسلام؛ لأنها تخفت بالنفاق واستفادت من مناهج الإسلام فقابلتها ، واتجهت إلى الشهوات فاستمالتها . فالجاهلية المعاصرة متمثلة فى الظلم والحسد والغرور والعدوان على حقوق الآخرين فى الأنفس والأعراض والأموال وهى أمور قد تصل إلى الشرك بالله وقد لاتصل . وقد تظهر فى أثواب عصرية خلابة مثل الصراع بين الطبقات والايديولوجية وحتمية التاريخ والثورية...الخ . لهذه الأسباب أطلقنا الحكم وقلنا الأدب أدبان ودرسه درسان . استنادا إلى أن الموهبة الأدبية لها مظهران : مظهر إيداعى ومظهر درسى . وأن المظهرين وجهان لعملة واحدة كما أكدنا على أن الأدب فى حقيقته دعوة ، وللدعوة مظهران : أحدهما إيمانى بناء يسعى إلى الصلاح والإصلاح. وثانيهما : جاهلى هدام يتجه إلى الفساد والإفساد.

كان لابد من هذه التذكرة المتصلة بإنشاء الأدب ودرسه لأن الأدب متصل بالقيم فى أغراضه ومعانية فى المدح والفخر والنسيب والرثاء والزهد . وقيم الحق والجمال والخير بمثابة العملة المتداولة بين الأديب أو دارس الأدب

والجمهور. فتمثلها فى الأدب يحدد قيمته وعند من من الناس يروج . ودللنا على أن المنهج الذى درجنا عليه فى درس الأدب غابت عنه هذه الحقائق لأنه أجنبى أوحى به دنلوب وكرومر إلى المستشرق (كارلو نالينو) لغاية خبيثة فعمد إلى تقسيم الأدب إلى عصور تاريخية صارت بمثابة حوائط عالية مانعة للرؤية فهو منهج خاطئ ترتبت عليه أمور بالغة الخطر أهمها :

١ - تناسى إبداع الشعراء المؤمنين قبل البعثة المحمدية .

٢ - والصمت عن دور الشريعة الإسلامية فى توجيه الأدب ، فصار يدعو إلى الحب والسلام والرخاء بعد أن كان شغله الشاغل الفخر بالغزو وتبرير القتل والسرقة والسبى واللهو بالنساء .

٣ - والإسراف فى الحديث عن شعراء صدروا عن المضمون الجاهلى ونسبة شعرهم ظلما إلى الإسلام كأبى نواس وعصبة المجان؛ فهم أصحاب جاهلية عاشوا فى الدولة العباسية ونقائض جرير والفرزدق والأخطل أدب جاهلى امتد إلى عصر بنى أمية.

٤ - وإقامة دراسة الأدب على أحداث السياسة وقضاياها، وبناء تطوره على الترتيب التاريخى للأحداث السياسية والاجتماعية ، وقد أخفى ذلك كثيرا من الجوانب الانسانية فى أدبنا العربى فوجدنا أنفسنا نقرأ فى التاريخ أو السياسة أو الاجتماع وليس فى الأدب .

وانتهينا إلى أن هذا المنهج محتاج إلى إعادة نظر ؛ لأنه قام على أن الأدب العربى شىء واحد . والحقيقة إننا بازاء أدبين متغايرين لا يجوز الجمع بينهما الأول هو الأدب القومى ، والثانى تدل عليه أسماء عدة هى : الأدب الجاهلى ، وأدب العِوَج ، وأدب التنوير ، والأدب الشعوبى ، والأدب غير القومى ، والحداثى و لا يخفى عليك أننا نشير بهذه الأسماءالعديدة إلى امتداد التآمر علينا عبر تاريخنا الحافل ، كما نشير إلى وظيفة الأدب الأساسية فى التوجيه والبناء

والإصلاح ودفع الأخطار ، كما نشير إلى العداوة الراسخة الممتدة عبر القرون دون كلل أو ملل .

وكتابنا الذى نقدمه للقراء اليوم يمثل المنهج الذى ننادى به فى درس الأدب العربى درسا جديدا فى مظهره أصيلا فى حقيقته هو المنهج البديعى ، وقد رأينا من واجبنا أن نؤكد فى هذا الكتاب على إعادة اكتشاف مدلول البديع بالرجوع إلى مصادرنا القديمة التى تصحح التصور الخاطئ للبديع عند السكاكى ومن تبعه ممن لخصوا كتابه وشرحوا التلخيص . وأيضا نراجع الدارسين المحدثين الذين أساءوا فهم البديع بدءا من الدكتور محمد مندور فى كتابه(النقد النهجى عند العرب) ووصولا إلى أصحاب الحداثة فقد دعونا أحدهم إلى المناظرة سنة ١٩٩٠ فنكل.

ومنهجا البديعى مرتبط بالأدب القومى أى أدب الأمة العربية المؤمنة ذات القيم الخلقية النبيلة التى تقدر الابتكار ؛ لأن الإبداع "إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء" وإذا استعمل فى الله تعالى فهو "إيجاد بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان وليس ذلك إلا لله".(١)

وقد سمى الله تعالى به نفسه مرتين فى القرآن الكريم فى سياق إفحام الكافرين المعاندين، قال تعالى :(وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) البقرة ١١٦، ١١٧ .وقال سبحانه فى سياق قريب مما تقدم : (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهوبكل شىء عليم) الأنعام ١٠١

ويقال البديع للمُبْدَع وهو مظهر تفوق الأديب على نفسه وعلى أقرانه فى التعبير والتصوير . أى يقال البديع للعطاء الأدبى الذى يخلد صاحبه فهو نتاج الموهبة الأدبية بعد أن تتحدد مواصفاتها ويكتمل نضجها ويتوهج بريقها .

ودراستنا هذه تنقسم إلى بابين :-

أولهما : يبحث فى البديع لغة واصطلاحا ، وتاريخا وعلاقته ببحوث النقد والبلاغة ، ويوازن بين المذهب البديعى والمنهج البديعى.

وثانيهما : يقدم درس وجوه البديع من خلال قضايا بلاغية ؛ هى قضية اللفظ والمعنى بين الفكر الوافد والفكر الأصيل ، وما شاع لدى بعض البلاغيين أن الأدب يصنع مرتين أولاهما يكون فيها عاريا من الزينة ثم تعاد صياغته بحسن مجلوب عليه . ونناقش أنصار هذه الدعوى ونبرز رد كبار الأدباء والبلاغيين عليها ويمثلهم يحيى بن حمزة العلوى صاحب الطراز.. ونؤكد من خلال دراستنا لوجوه البديع على دلالة عدد منها على تصور الوحدة العضوية للعمل الأدبى قصيدة أو رسالة أو خطبة .

ونهتم بالتطبيقات على كل باب ونبرز القيم الجمالية والقيم الخلقية فى النصوص من خلال المعيار الذى أبرزه الجاحظ للقيمة فى الحضارة العربية الإسلامية وسماه إصابة المقدار.

وقد حددنا منهجنا فى تناول وجوه البديع بأنه منهج يقع بين مدرستين ويجوس خلال ثلاثة اتجاهات للدرس البلاغى .

أما المدرستان فقد أدرك القدماء وجود بلاغتين ؛ هما البلاغة على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والبلاغة على طريقة العرب والبلغاء . فرأينا أن نجمع مزايا المدرستين ما أمكننا الجمع ، ونرجو أن نوفق فى بيان الحدود الجامعة المانعة التى امتازت بها مدرسة البلاغة على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، ونضيف روعة الشواهد الدالة على صحة طبع أصحابها وجودة ابتكارهم ، ونعد بأن تكون الشواهد الأدبية وفيرة لتعين الدارس على تربية الذوق الأدبى ، فالبلاغة لا تدرس من خلال التعريفات بل من خلال النصوص .

وأما البيئات الدراسية التى نجوس خلالها فى هذا الدرس فهى البينات المعنية بالدرس البلاغى والتى توزعت اتجاهاتها بين المدرستين وبين مصطلحات عديدة

فى مجال درس الأدب هى البيان والبلاغة وعلم صنعة الشعرو البديع والنقد وسوف نوقفك على المشابه بين بعضها والفروق بين بعضها الآخر .

سنقف عند آراء الخليل بن أحمد والأصمعى ونفيد من آراء الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) كما نستعين بآراء المُبَرِّد فى كتابه (الكامل فى اللغة والأدب) كما نعتمد على ثمار دراسة الأدب التى تشكلت فى أنماط ثلاثة كبرى منذ القرن الرابع الهجرى وقد بَيَّنَ الدكتور طه الحاجرى الفروق الدقيقة بينها بقوله:

"يعتبر القرن الرابع من التواريخ الحاسمة فى تاريخ النقد الأدبى ، كما يعتبر من أحفل مراحل الحياة الأدبية ، بمظاهر النشاط النقدى والاتجاهات المختلفة فيه.

يكفينا أن نعرف فى الحياة العقلية فى هذا القرن أنماطا ثلاثة كبرى لكل نمط منها منهجه وطابعه و غايته ، كما يعبر كل منها عن نزعة عقلية خاصة ، ويتجاوب بأصداء بيئة علمية معينة .

أما النمط الأول فهو النقد الأدبى بمعناه الخاص ، يهدف إلى غرض أدبى خالص ويقوم بموضوعات أدبية ، كما يصطنع أسلوبا أدبيا يثير الذوق الفنى ويعتمد على الحس البيانى.

والثانى نقد أدبى فى موضوعه ، ولكنه يختلف عن سابقه فى أسلوبه ومنهجه إذ يتجه أول ما يتجه من ذلك إلى اصطناع الأسلوب العلمى فى الترتيب والتبويب والتصنيف والتعريف والتقدير والتحرير، وإلى استنباط القوانين ووضع القواعد وتعزيزها بالأمثلة والشواهد – كما يصدر ، أكثر ما يصدر – عن تلك النزعة العملية أو التعليمية التى ترمى إلى جمع الأشباه والنظائر وبيان الصلات التى تصلها والعلاقات التى تربط بينها وتحرى ما قد يكون من فروق واختلافات تفرق بين الواحد منها والآخر.

وأما النمط الثالث فهو نقد أدبى أيضا فى أسلوبه ومنهجه وجملة موضوعاته. ولكنه يصدر عن نزعة غير تلك النزعة ويتجه إلى غاية غير تلك الغاية إذ كان

يصدر عن النزعة الدينية . ويتجه إلى إثبات الحجة الخالدة للإسلام فى إعجاز القرآن مظهر ذلك الارتباط ، أما فيما بعد ذلك فله أسلوبه الأدبى فيما يعالج من وسائل تلك القضية إلى جانب ما يعرض له فى أثناء هذه الدراسة من قضايا التعبير الأدبى".(٢)

وإذا مثلنا لهذه الأنماط التى ميزها الدكتور الحاجرى بشواهد من التراث فى دراسة الأدب فى القرن الرابع الهجرى فسنجد أن كتابى(الوساطة بين المتنبى وخصومه)لعلى بن عبد العزيز الجرجانى و(الموازنة بين الطائيين)للآمدى يصوران النمط الأول.

والكتابان من كتب الخصومة حول شاعر ومذهبه الفنى ، ويُعَدَّان من أهم كتب النقد الأدبى والمؤلفان لم يكن فى تصورهما أن يفصلا النقد عن البلاغة فالاحتجاج لقضية من قضايا النقد محوج للتدليل عليها بالخوض فى معنى البديع وقصاياه ووجوهه وأعلامه ، والسابق منها واللاحق ،والبديع المستحسن والبديع المستكره ، والمعيار الذى تناط به القيمة الجمالية والقيمة الخلقية .

والنمط الثانى يمثله(عيار الشعر)لابن طباطبا العلوى و(نقد الشعر)لقدامة بن جعفر و(البرهان فى وجوه البيان)لابن وهب . والغالب على أصحاب هذا النمط اعتمادهم على الثقافة الوافدة مترجمة ، وعنايتهم بالحدود المنطقية وافتقادهم فقه العربية ، وتسرب آراء لا تمثل الفكر العربى الاسلامى إليهم،وإنما تمثل الفكر اليونانى كالفصل بين اللفظ والمعنى أى بين الشكل والمضمون وهذا التصور غريب على تراثنا متصادم معه وقد تسببت عنه اختلافات كثيرة فى الدرس البلاغى . و نستطيع أن نقابل أصحاب هذا النمط فى الدرس البلاغى بمدرسة الرواة أصحاب فقه العربية الذين قام درسهم على استنباط القواعد من النصوص.

أما النمط الثالث فيمثله أصحاب الإعجاز وأشهرهم: أبو الحسن على بن عيسى الرمانى (٢٩٦-٣٨٦هـ) فى رسالته (النكت فى إعجاز القرآن) وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت(٤٠٣هـ) فى كتابه (إعجاز القرآن) .

والجدير بالذكر أن الجاحظ فى القرن الثالث ألف كتابه (نظم القرآن) الذى أقامه على تصور أن اعجاز القرآن فى نظمه؛أى فى تراكيبه ودلالات ألفاظه ودلالات صوره على المعنى.وقد نفى فيه وجود الترادف داخل العمل الأدبى فلا لفظ بلا معنى ولا يتصور وجود معنى لايعبر عنه بوجه من وجوه البيان فالعلاقة بين اللفظ والمعنى عنده هى التلازم فى الوجود ورأيه يمثل الفكر العربى الإسلامى أصدق تمثيل .

وقد فتح به الجاحظ فتحا جديدا فى دراسة الأدب وبهذه النظرية أثبت أن الإعجاز باق إلى يوم الدين وأن التحدى قائم لمن يتوهم أنه قادر على أن يأتى بمعارضة لسورة من سور القرآن أولآية من آياته، وبرغم فَقْدِ الكتاب أمكننا أن نتصوره من إشارات الجاحظ إليه ومما نُقِل عنه.

وقد اقتدى بالجاحظ معاصروه واللاحقون بعده ، ودان بهذه النظرية علماء العربية؛فألف ابن قتيبة كتابة (تأويل مشكل القرآن) وأثبت فى مقدمته أنه يصدر عن تصور أن إعجاز القرآن فى نظمه كما أقر أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين أنه يصدر فى دراسته عن هذا التصور . وتعددت المؤلفات الصادرة عن هذه النظرية مثل (بيان إعجاز القرآن) لأبى سليمان أحمد بن محمد الخطابى (٣١٩-٣٨٨هـ)والامام عبيد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) صاحب (الرسالة الشافية) و(أسرار البلاغة) و (دلائل الاعجاز) (٣) _تدلل على أن إعجاز القرآن فى نظمه.

والدارس يجد تصادما بين فقهاء العربية الذين ساروا على درب الجاحظ وبين أصحاب النمط الثانى ويمثلهم قدامة بن جعفر صاحب نقد الشعر ، وابن وهب

صاحب البرهان فى وجوه البيان ، وابن سنان الخفاجى صاحب سر الفصاحة- الذين تصوروا إعجاز القرآن فى إخباره عن الغيوب ولم يقروا أن اعجازه فى نظمه وردوه إلى الصَّرْفَةِ وفصلوا بين اللفظ والمعنى ؛ لذلك نجد أنفسنا بحاجة دائمة إلى مراجعات لآرائهم فى الدرس البلاغى.

والذى نختلف فيه مع أستاذنا الدكتور طه الحاجرى أنه اتخذ (النقد الأدبى) مصطلحا عاما لدراسة النص الأدبى ، وهذه قضية خلافية بين كبار دارسى الأدب

والأحق بهذه التسمية ما أقره ابن خَلْدُون فى المقدمة (علم البيان) وما رآه أستاذنا محمد خلف الله (البلاغة) وهذا ما قرره العلامة الشيخ أمين الخولى.

لقد رأينا فى (المدخل إلى الأدب العربى ودراسته) أن دراسة الأدب كغيرها من علوم العربية قامت حول النص القرآنى؛فبالشعر الجاهلى قامت دراسة النص القرآنى واستخراج دلالة الحلال والحرام والمكروه والمتروك والناسخ والمنسوخ لأنه نزل بلسان عربى مبين . وبالدراسات الكثيرة للنص القرآنى استفادت دراسةالأدب وسميناهذه الحقيقةالتراثيةوَحْدَةُالتُّرَاثِ.

تقودنا هذه الحقائق إلى دراسة علم البديع من خلال كتب التراث قديمها وحديثها ، شرطنا أن يصدر الدارس عن ولاء صحيح لهذا التراث وعن فقه بالعربية ولا بأس عندنا من اختيار ما يفيد من كتاب من كتب النقد الأدبى أو كتاب من كتب الأدب أو كتاب من كتب الأدباء المطلعين على التراث اليونانى المترجم فالاختيار قاعدة أساسية فى المنهج البديعى .